

كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

للأستاذ الفاضل العلامة

الشيخ عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله العيدير

باعلوي قدس الله سره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفق لنشر المحاسن وطيبها في كتاب ، وجعل ذلك قرآناً لأعين الأحباب ، وذخيرة ليوم المآب ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوي الألباب ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ما أشرفت شمس الإحياء للقلوب ، وتوجهت همه روحانية مصنفه الولي الموهوب ، إلى إسعاف ملازمي مطالعته ومحبيه بالمطلوب .

وبعد : فإن الكتاب العظيم الشأن ، المسمى بإحياء علوم الدين ، المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين ، المشايخ العارفين المنسوب إلى الإمام الغزالي رضي الله عنه ، عالم العلماء ، وارث الأنبياء ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المهجدين ، مقتدي الأئمة ، مبين الحل والحرمة ، زين الملة والدين ، الذي باهى به سيد المرسلين ﷺ ، وعلى جميع الأنبياء ، ورضي عن الغزالي وعن سائر العلماء المجتهدين ،

لما كان عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير في باب ، لم ينسج على منواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتقاً على الشريعة ، والطريقة والحقيقة كاشفاً عن الغوامض الخفية ، مبيناً للأسرار الدقيقة . رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة ، على صياغة صياغة ، من فضله وشرفه ، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه ، ورتبته على المقدمة ، ومقصد ، وخاتمة .

فالمقدمة في عنوان الكتاب ، والمقصد في فضائله وبعض المدائح والتناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه ، والخاتمة في ترجمة المصنف رضي الله عنه ، وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

المقدمة في عنوان الكتاب

اعلم أن علوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالى . تنقسم إلى ظاهرة وباطنة والظاهرة قسمان : معاملة بين العبد وبين الله تعالى ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق ، والباطنة أيضاً قسمان : ما يجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة ، وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة ، وقد بنى الإمام الغزالي رحمه الله كتاب إحياء علوم الدين على هذه الأربعة أقسام ، فقال في خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع : ربع العبادات وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب العلم ، كتاب قواعد العقائد ، كتاب أسرار الطهارة ، كتاب أسرار الصلاة ، كتاب أسرار الزكاة ، كتاب أسرار الصيام ، كتاب أسرار الحج ، كتاب

تلاوة القرآن ، كتاب الأذكار والدعوات ، كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربيع العادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الأكل ، كتاب آداب النكاح ، كتاب آداب الكسب ، كتاب الحلال والحرام ، كتاب آداب الصحة ، كتاب العزلة ، كتاب آداب السفر ، كتاب آداب السماع والوجد ، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كتاب أخلاق النبوة .

وأما ربيع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، كتاب آفة الشهوتين البطن والفرج ، كتاب آفة اللسان ، كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم المال والبخل ، كتاب ذم الجاه والرياء ، كتاب الكبر والعجب ، كتاب الغرور .

وأما ربيع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة ، كتاب الصبر والشكر ، كتاب الخوف والرجاء ، كتاب الفقر والزهد ، كتاب التوحيد والتوكل ، كتاب المحبة والشوق والرضا ، كتاب النية والصدق والإخلاص ، كتاب المراقبة والمحاسبة ، كتاب التفكير ، كتاب ذكر الموت .

ثم قال رحمه الله : فأما ربيع العبادات فأذكر فيه خفايا آدابها ودقائق سنتها وأسرار معانيها ، ما يضطر العالم العامل إليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل في الفقهيات .

وأما ربيع العادات : فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، ودقائق سنتها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي مما لا يستغني المتدين عنها .

وأما ربيع المهلكات : فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإمامته وتركه النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر في كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها يترتب ، ثم المعاملات التي بها يعرف ، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص ، كل ذلك مقروناً بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربيع المنجيات : فأذكر فيه كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها ، من خصال المقربين والصدقيين التي يتقرب بها العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، وثمرتها التي منها تستفاد ، وعلامتها التي بها تعرف وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

المقصد في فضل الكتاب

المشار إليه وبعض المدائح والثناء من الأكاير عليه

والجواب عما استشكل منه وطقن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى ، جمع الناس مناقبه فقصروا وما قصروا ، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعز من أفردوا فيما علمت بتأليف ، وهي جديرة بالتصنيف ، غاص مؤلفه رضي الله عنه في بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المعاني ، ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال في بساتين العلوم ، فاجتني ثمارها ، بعد أن اقتطف من أزهارها ، وسما إلى سماء المعاني فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة ، وجلت عليه عرائس أسرار المعاني ، فلم ترق في عينه منهن إلا بادية النضارة ، جمع

رضي الله عنه فأوعى ، وسعى في إحياء علوم الدين ، فشكر الله له ذلك المسعى ، فلله دره ، من عالم محقق مجيد ، وإمام جامع لثقات الفضائل ، محرر فريد ، لقد أبدع فيما أودع كتابه ، من الفوائد الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه ، وأملى بيد أنه في العلوم صاحب القدر الملقى ، إذ كان رضي الله عنه ، من أسرار العلوم بمحل لا يدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله .

هيهات لا يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشتات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولى على غايات المناقب ، فشجرته في فوارة العلم ، والعمل والعلا ، والفهم ، والذكا أصلها ، وفروعها في السماء ، مع كونه رضي الله عنه ، ذا الصدر الرحيب ، والقريحة الثاقبة ، والدراية الصائبة ، والنفس السامية ، والهمة العالية .

ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله عليه ، أن الفقيه العلامة ، قطب اليمن إسماعيل بن محمد الحضرمي ، ثم اليمني ، سئل عن تصانيف الغزالي فقال : من جملة جوابه محمد بن عبد الله رحمته الله ، سيد الأنبياء ، ومحمد بن إدريس سيد الأئمة ، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي ، سيد المصنفين ، وذكر اليافعي أيضاً ، أن الشيخ الإمام الأكبر ، أبا الحسن علي بن حرزهم ، الفقيه المشهور المغربي ، كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين ، وكان مطاعاً ، مسموع الكلمة ، فأمر بجمع ما ظفر به ، من نسخ الإحياء ، وهم بإحراقها في الجامع يوم الجمعة ، فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع ، فإذا هو بالنبي رحمته الله فيه ، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي رحمته الله ، فلما أقبل ابن حرزهم ، قال الغزالي هذا خصمي يا رسول الله ، فإن كان الأمر كما زعمت تبت إلى الله ، وإن كان شيئاً حصل لي من بركتك ، واتباع سنتك ، فخذ لي حقي من خصمي ، ثم ناول النبي رحمته الله كتاب الإحياء ، فتصفحه النبي رحمته الله ، ورقة ورقة ، من أوله إلى آخره ، ثم قال والله إن هذا لشيء حسن ، ثم ناوله الصديق رضي الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده ، ثم قال نعم والذي بعثك بالحق إنه لشيء حسن ، ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه ، فنظر إليه وأثنى عليه كما قال الصديق ، فأمر النبي رحمته الله بتجريد الفقيه على بن حرزهم عن القميص ، وأن يضرب ويحد ، حد المفتري ، فجرد وضرب ، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رضي الله عنه ، وقال يا رسول الله لعله ظن خلاف سنتك فأخطأ في ظنه ، فرضي الإمام الغزالي وقبل شفاعته الصديق ، ثم استيقظ ابن حرزهم ، وأثر السياط في ظهره ، وأعلم أصحابه ، وتاب إلى الله ، عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر ، ولكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر السياط ، وهو يتضرع إلى الله تعالى ، ويتشفع برسول الله رحمته الله ، إلى أن رأى النبي رحمته الله دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره ، فعوفى وشفي بإذن الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ، ففتح الله عليه ، ونال المعرفة بالله ، وصار من أكابر المشايخ ، أهل العلم الباطن والظاهر ، رحمه الله تعالى .

قال اليافعي : روي ذلك بالأسانيد الصحيحة ، فأخبرني بذلك ولي الله عن ولي الله عن ولي الله الشيخ الأكبر ، القطب شهاب الدين أحمد بن الميلى الشاذلي ، عن شيخه الشيخ الكبير ، العارف بالله ياقوت

الشاذلي ، عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبي العباس المرسي ، عن شيخه الشيخ الكبير ، شيخ الشيوخ أبي الحسن الشاذلي ، قدس الله أرواحهم ، وكان معاصراً لابن حزمهم . قال : وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، ولقد مات الشيخ أبو الحسن بن حزمهم رحمه الله يوم مات ، وأثر السياط على ظهره ، وقال الحافظ بن عساكر رحمه الله : وكان أدرك الإمام الغزالي واجتمع به ، قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الإسفراييني ، يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحدي ، زين القراء جمال الحرم ، أبا الفتح الشاوي بمكة المشرفة ، يقول : دخلت المسجد الحرام يوماً ، فطرأ عليّ حالٌ وأخذني عن نفسي فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بي ، فوقعت على جنبي الأيمن ، تجاه الكعبة المعظمة وأنا على طهارة ، وكنت أطرد عن نفسي النوم ، فأخذتني سنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبي ﷺ في أكمل صورة ، وأحسن زي من القميص والعمامة ، ورأيت الأئمة ، الشافعي ، ومالكاً ، وأبا حنيفة ، وأحمد ، ورحمهم الله ، يعرضون عليه مذاهبهم واحداً بعد واحد وهو ، ﷺ يقرهم عليها ، ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة ، فأمر النبي ﷺ بطرده ، وإهاتته فتقدمت أنا وقلت يا رسول الله هكذا الكتاب ، أعني إحياء علوم الدين معتقدي ، ومعتقد أهل السنة والجماعة . فلو أذنت لي حتى أقرأه عليك ، فأذن لي ، فقرأت عليه من كتاب قواعد العقائد : بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة ، حتى انتهيت إلى قول الغزالي ، وأنه تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمداً ﷺ إلى كافة العرب والعجم ، والجن والإنس ، فرأيت البشاشة في وجهه ﷺ ، ثم التفت وقال : أبن الغزالي وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال : ها أنا ذا يا رسول الله وتقدم وسلم فرد عليه السلام عليه الصلاة والسلام ، وناولته يده الكريمة فأكب عليه الغزالي يقبلها ويتبرك بها ، وما رأيت النبي ﷺ أشد سروراً بقراءة أحد عليه ، مثل ما كان بقراءتي عليه إحياء ، ثم انتهيت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكان تقريره ﷺ لمذاهب أئمة السنة واستبشاره بعقيدة الغزالي وتقديرها ، نعمة من الله عظيمة ، ومنه جسيمة ، نسأل الله تعالى أن يبيينا على سنته ويتوفانا على ملته آمين .

فصل

أثنى على إحياء عالم من علماء الإسلام ، وغير واحد من عارفي الأنام ، بل جمع أقطاب وأفراد . فقال فيه الحافظ : الإمام الفقيه أبو الفضل العراقي في تخريجه ، أنه من أجل كتب الإسلام ، في معرفة الحلال والحرام ؛ جمع فيه بين ظواهر الأحكام ونزع إلى سرائر دقت عن الأذهان ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيها في أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتدياً بقول علي كرم الله وجهه : خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم الغالي ، إلى آخر ما ذكره ، مما الأولى بنا في هذا المحل طيه ، ثم الانتقال إلى نشر محاسن إحياء ، ليظهر للمحب والمبغض رشده وغيه .

وقال عبدالغافر الفارسي : في مثال الإحياء أنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها . وقال فيه النووي : كاد الإحياء أن يكون قرآناً ، وقال الشيخ أبو محمد الكازروني : لو محيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء ، وقال بعض علماء المالكية : الناس في فضل علوم الغزالي ، أي وإحياء جماعها ، كما سيأتي أنه البحر المحيط ، وكان السيد الجليل كبير الشأن ، تاج العارفين ، وقطب الأولياء الشيخ عبدالله العيدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه نقلاً . وروي عنه أنه قال : مكثت سنتين أطلع كتاب إحياء ، كل فصل وحرف منه وأعاده وأتدبره ، فيظهر لي منه في كل يوم ، علوم وأسرار عظيمة ، ومفاهيم غزيرة غير التي قبلها ، ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد ، أثنى على كتاب الإحياء ، بما أثنى عليه ، ودعا الناس بقوله وفعله إليه وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه ، ومن كلامه رضي الله عنه عليكم يا أخواني بمتابعة الكتاب والسنة ، أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية ، وخصوصاً كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس .

ومن كلامه : عليكم بالكتاب والسنة أولاً وأخراً ، وظاهراً وباطناً وفكراً واعتباراً واعتقاداً ، وشرح الكتاب والسنة مستوفى في كتاب إحياء علوم الدين ، للإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله ونفعنا به . ومن كلامه وبعد : فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين ، وبقية المجتهدين ، حجة الإسلام الغزالي ، في كتابه العظيم الشأن ، الملقب أعجوبة الزمان إحياء علوم الدين ، الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة .

ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين ، فهو موضع نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه ، فقد استوجب محبة الله ، ومحبة رسول الله ، ومحبة ملائكة الله وأتبيائه ، وجمع بين الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة ، في الدنيا والآخرة وصار عالماً في الملك والملكوت . ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما في الإحياء .

ومن كلامه : اعلموا أن مطالعة إحياء تحضر القلب الغافل في لحظة ، كحضور سواد الحير بوقوع الزاج في العفص والماء وتأثير كتب الغزالي واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن .

ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لا شيء أنفع للقلب ، وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي ، ومحبة كتبه ، فإن كتب الإمام الغزالي ، لباب الكتاب والسنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل على ما أقول .

ومن كلامه : أنا أشهد سرراً وعلاية ، أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين ، فهو من المهتدين .

ومن كلامه : من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله ، أهل الظاهر والباطن ، فعليه بمطالعة كتب الغزالي ، خصوصاً إحياء علوم الدين ، فهو البحر المحيط .

ومن كلامه : إشهدوا على أن من وقع على كتب الغزالي فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة .

ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما فعليه بمطالعة كتب الغزالي ، وخصوصاً البحر المحيط إحياءه أعجوبة الزمان .

ومن كلامه : نطق معاني معنوي القرآن ولسان حال قلب رسول الله ﷺ وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء ، بل جميع أرواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفية ، مثل العارفين والملازمة ، بل جميع سر حقائق الكائنات والمعقولات ، وما يناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هؤلاء المذكورون ، أن لا شيء أرفع وأنفع وأبهى وأبهج وأتقى وأقرب إلى رضا الرب ، كمتابعة الغزالي ومحبة كتبه ، وكتب الغزالي قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المعقول والمنقول ، وأنفع يوم ينفخ إسرافيل في الصور ، وفي يوم نقر الناقر ، والله وكيل على ما أقول : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (آل عمران : 185) .

ومن كلامه : كتاب إحياء علوم الدين ، فيه جميع الأسرار ، وكتاب بداية الهداية ، فيه التقوى ، وكتاب الأربعين ، الأصل فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب منهاج العابدين ، فيه الطريق إلى الله ، وكتاب الخلاصة في الفقه ، فيه النور . ومن كلامه : السر كله في اتباع الكتاب والسنة ، وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة في كتاب إحياء علوم الدين ، المسمى أعجوبة الزمان .

ومن كلامه : يخ يخ لمن طالع إحياء علوم الدين ، أو كتبه ، أو سمعه .

وكلامه رضي الله عنه ، في تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالي وكتبه والحث على العمل بها ، خصوصاً إحياء علوم الدين ، وقد كان سيدي ووالدي الشيخ العارف بالله تعالى ، شيخ بن عبدالله العيدرور رضي الله عنه يقول : إن أهمال الزمان جمعت كلام الشيخ عبدالله ، في الغزالي وسميته الجوهر المتلالي ، خصوصاً من كلام الشيخ عبدالله في الغزالي ، فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوقني الله لذلك تحقيقاً لرجائه ، ورجاء أن يتناولني دعاء الشيخ عبدالله رضي الله عنه ، فإنه قال : غفر الله لمن يكتب كلامي في الغزالي ، وناهيك ببشارة في هذه العبارة التي برزت من ولي عارف ، وقطب مكاشف ، لا يجازف في مقال ، ولا ينطق إلا عن حال ، وفي هذا من الشرف للغزالي وكتبه ما لا يحتاج معه إلى مزيد : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ لَفِيَ السَّمْعُ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق : 37) فإن العظيم لا يعظم في عينه إلا عظيم ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل . وإذا تصدى العيدرور لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ، ووصف الشهادة منه خير من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء في زمانه بسببه نسخ عديدة ، حتى أن بعض العوام حصلها لما رأى من ترغيبه فيه ، وألزم أخاه الشيخ علياً قراءته ، فقرأه عليه مدة حياته خمس وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف ، ثم إن الشيخ علياً ألزم ولده عبدالرحمن قراءته عليه مدة حياته ، فخرمه عليه أيضاً خمساً وعشرين مرة ، وكان ولده سيدي الشيخ أبو بكر العيدرور صاحب عدن ، التزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم ، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لا أترك تحصيل الإحياء أبداً ما عشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ . قلت : وكذلك كان سيدي الشيخ الوالد شيخ بن

عبدالله بن شيخ بن الشيخ عبدالله العيدرور رضي الله عنه ، مدمناً على مطالعته وحصل منه نسخاً عديدة نحو السبع ، وأمر بقراءته عليه غير مرة وكان يعمل في ختمه ضيافة عامة ، فملازمته ميراث عيدرورسي ، وتوفيق قدوسي ، فمن وفقه الله لامثاله والعمل بما فيه واستعماله بلغ الرتبة العليا ، وجاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير علي بن أبي بكر بن الشيخ عبدالرحمن السقاف لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم ، ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس ، قلت : وهو صحيح فإني مع خسيس قصدي وقساوة قلبي أجد عند مطالعته له من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا ما لا مزيد عليه ، ثم يفتر برجوعي إلى ما أنا فيه ، ومخالطة أهل الكثافات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق وما ذاك إلا لشيء أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه ، وحسن قصده ، والمراد بالكافر هنا فيما يظهر الجاهل لعيوب النفس ، المحجوب عن إدراك الحق أي فيمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره ، وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ كان حرياً أن يتعظ به سامعه ، وكما أن الله تعالى جعل لعباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، رتبة فوق غيرهم ، كذلك جعل لما يبرز منهم ، ويؤخذ عنهم بركة زائدة على غيره لأن ألسنتهم كريمة ، وأنوار قلوبهم عظيمة ، وهمهم عالية ، وإشاراتهم سنية ، حتى يكون للقرآن أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير في القلوب ظاهر ، ولعلومهم وفقههم أنوار ونفع متظاهر ، حتى تجد الرجل له العلم القليل ، وبعد ذلك ينتفع به كثير ، لحسن نيته ، ووجود بركته ، وغيره له أكثر من ذلك العلم ، ولم ينتفع به مثله ، لأنه دونه في منزلته ، ومن تأمل ذلك وجده أمراً ظاهراً معهوداً . وشيئاً مجرباً موجوداً ، فانظر إلى نفع الناس ، بكتاب الخلاف في مذهب مالك رحمه الله تعالى ، والتنبية في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، والجمل في العربية والإرشاد في علم الكلام ، وانتشارها مع أن ما حوت من علم في فنونها قليل ، وقد جمع غير هؤلاء في هذه الفنون في مثل أجرام هذه الكتب أضعاف ما فيها ، مع تحقيق تحرير العبارات وتشويق المعاني ، وتخليص الحدود بعد هذا ، فالنفع بهذه أكثر ، وهي أظهر وأشهر ، لأن العلم بمزيد التقوى ، وقوة سر الإيمان لا بكثره الذكاء وفضاحة اللسان ، كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله : ليس العلم بكثره الرواية ، إنما العلم نور يضعه الله في القلب .

قلت ومما أتشدده الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه ، لنفسه فيه قوله :

| | |
|-------------------------------|------------------------------|
| أحسى اتبته والزم سلوك الطرائق | وسارع إلى المولى بجسد وسابق |
| أيا طالباً شرح الكتاب وسنة | وقانون قلب القلب بحر الحقائق |
| وإيضاح منهج للحقيقة مشرق | وشرب حمياً صفو راح الحقائق |
| وإجللاء أذكار المعاني ضوايحاً | يياهج حسن جاذب للخلائق |
| عليك بإحياء العلوم وليها | وأسرارها كم قد حوى من دقائق |

وكم من لطيفات لذي اللب منهل
كتاب جليل لم يصنف قبله
فكم في بديع اللفظ يجلي عرائساً
معانيه أضحت كالبدور سواطعاً
وكم من عزيزات زهت في قبائها
وكم من لطيف مع بديع ونخفة
بساتين عرفان وروض لطائف
رعى الله صباراً تعافى جنائنها
ويقطف من ذاكي جناها فواكها
خضم طمى حتى علا فوق من علا
فإن لم بهذا القول تؤمن فجرين
وارجع طرفاً في بديع جمالها
ترى في بدور الحي أقمراً قد بدت
فكم انتهلت صباً وكم قشعت عمى
فيضحي براح الحب سكران مغرماً
ويمسي يتأديها طريحاً بياها
صلاة على سر الوجود شفيعنا
وأصحابه أهل المكارم والعلا

فصل

وأما ما أنكروا عليه من مواضع مشكلة الظاهر وفي التحقيق لا إشكال أو أخبار وآثار تكلم في سندها .
فأما من جهة تلك المواضع فممن أجاب عنها المصنف نفسه في كتابه المسمى بالأجوبة ، وأسوق لك نبذة
من ذلك هنا . قال رحمه الله : سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقبها ، وقرب لك مقامات الأولياء
تحل معاليها ، عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء ، عما أشكل على من حجب وقصر فهمه ، ولم
يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطعام ، وأمثال
الأنعام ، وأتباع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته
ومطالعة ، وأفتوا بالهوى ، مجردا على غير بصيرة ، بإطراحه ومنابدته ، ونسبوا ثمليه إلى ضلال وإضلال .
ورموا قراءه ومنتحلته بزيف عن الشريعة واختلال ، إلى أن قال : ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾
(الزخرف : 19) ﴿وَيَسْأَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىُّ مَقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء : 227) ثم ذكر آيات أخرى في
المنعنى ، ثم وصف الدهر وأهله ، وذهاب العلم وفضله ، ثم ذكر عذر المعترضين ، بما يرجع حاصلها إلى

الحسد وإلى الجهل وقلة الدين ، بل أفصح بذلك في الآخر حيث قال : حججوا عن الحقيقة بأربعة ،
الجهل ، والإصرار ، ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى ، ثم بين ما ورثوه عن الأربعة المذكورة ، فالجهل
أورثهم السخف ، إلى آخر ما ذكره وأما ما اعترض به من تضمينه أخباراً وآثاراً موضوعة أو ضعيفة ،
وإكثاره من الأخبار والآثار ، والإكثار يتحاشى منه المتورع لئلا يقع في الموضوع ، وحاصل ما أُجيب به
عن الغزالي ومن المحبين الحافظ العراقي أن أكثر ما ذكره الغزالي ليس بموضوع كما يبرهن عليه في التخريج ،
وغير الأكثر وهو في غاية القلة ، رواه عن غيره أو اتبع فيه غيره متبرئاً منه بنحو صيغة روي ، وأما
الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعيف بكثرة ، فهو اعتراض ساقط لما تقرر أن يعمل به في الفضائل ،
وكتابه في الرقائق فهو من قبيلها ولأن له أسوة بأئمة الأئمة الحافظ في اشتغالهم على الضعيف بكثرة
المنبه على ضعفه تارة والسكوت عنه أخرى ، وهذه كتب الفقه للمتقدمين ، وهي كتب الأحكام لا
الفضائل توردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها ، حتى جاء النووي رحمه الله في المتأخرين وبه
على ضعف الحديث ، وخلافه كما أشار إلى ذلك كله العراقي : قال عبدالغافر الفارسي سبط القشيري ،
ظهرت تصانيف الغزالي وفشت ولم يبد في أيامه مناقضة لما كان فيه ولا لآثاره إلى آخر ما ذكره ، وبما يدل
على جلاله . كتب الغزالي ما نقل ابن السمعاني من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم ، كأن الشمس طلعت من
مغربها ، مع تعبير ثقات المعبرين ببدعة تحدث ، فحدثت في جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه ومن أنه
لما دخلت مصنفاته إلى المغرب ، أمر سلطانه علي بن يوسف بإحراقها ، لتوهمه اشتغالها على الفلسفة ،
وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك ، فظهر بسبب أمره في مملكته منا كبير ، ووثب عليه الجند ، ولم
يزل من وقت الأمر والتوعد ، في عكس ونكد ، بعد أن كان عادلاً .

خاتمة في الإشارة إلى ترجمة المصنف رضي الله عنه

وعنا به ونفعا بعلمه وأسراره وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضي الله عنهم

أما ترجمته رضي الله عنه : فهو الإمام زين الدين ، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد
الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري الذي انتشر فضله في الآفاق وفاق ، ورزق
الحظ الأوفر في حسن التصانيف وجودتها والنصيب الأكبر في جزالة العبارة وسهولتها ، وحسن الإشارة ،
وكشف المعضلات ، والتبحر في أصناف العلوم ، فروعها ، وأصولها ، ورسوخ القدم في منقولها ومعقولها ،
والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها ، مع ما خصه الله به من الكرامة ، وحسن السيرة والاستقامة ،
والزهدة والعزوف عن زهرة الدنيا ، والإعراض عن الجهات الفانية ، وإطراح الحشمة والتكلف ، قال
الحافظ العلامة ابن عساكر : والشيخ عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعي ، والفقيه جمال الدين
عبدالرحيم الإسنوي رحمهم الله تعالى ، ولد الإمام الغزالي بطوس سنة خمسين وأربعمائة وابتدأ بها في صباه
بطرف من الفقه ، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين وجد واجتهد ، حتى تخرج في مدة قريبة ،
وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام

يتبجح به ويعتد بمكانه منه : ثم خرج من نيسابور ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك ، فأقبل عليه ، وحل منه علماً عظيماً ، لعلو درجته ، وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محطاً لرجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة ، من مناظرة الفحول فظهر اسمه ، وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد ، للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها ، وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق ، بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته في بغداد ، على الأمراء ، والوزراء ، والأكابر ، وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى ، فترك بغداد ، وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة ، مشتغلاً بأسباب التقوى ، وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها ، مثل إحياء علوم الدين وغيره ، التي من تأملها عرف محل مصنفها من العلم . قيل أن تصانيفه وزعت على أيام عمره ، فأصاب كل يوم كراس ، ثم سار إلى القدس ، مقبلاً على مجاهدة النفس ، وتبديل الأخلاق ، وتحسين السمائل ، حتى مرن على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طوس ، لازماً بيته ، مقبلاً على العبادة ، ونصح العباد وإرشادهم ، بدعائهم إلى الله تعالى ، والاستعداد للدار الآخرة ، مرشد الضالين ، ويفيد الطلاب دون أن يرجع إلى ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة ، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى ، يوم الاثنين ، الرابع عشر من جمادى الأولى سنة خمسة وخمسمائة ، خصه الله تعالى بأنواع الكرامة في أخراه ، كما خصه بها في دنياه .

قيل : وكانت مدة القطبية للغزالي ثلاثة أيام على ما حكى في كرامات الشيخ سعيد العمودي نفع الله به ، وذكر الشيخ عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى بإسناده الثابت ، إلى الشيخ الكبير القطب الرباني ، شهاب الدين أحمد الصياد البمني الزبيدي ، وكان معاصراً للغزالي ، نفع الله بهما .

قال : بينما أنا ذات يوم قاعد ، إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة ، وإذا عصابة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ومركوب نفيس ، فوقفوا على قبر من القبور ، وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع ، وأركبوه وصعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن جاوز السموات السبع وخرق بعدها ستين حججاً ، ولا أعلم أين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لي هذا الإمام الغزالي ، وكان ذلك عقب موته رحمه الله تعالى .

ورأى في النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه النبي ﷺ وقد باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال : أفي أمتكما حبر هكذا ؟ قال : لا وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه : من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالي . وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم : منهم الشيخ الإمام الحافظ ابن عساكر في الحديث الوارد عن النبي ﷺ ، بأن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة ، أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالي رضي الله عنه .

وروي ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في الإمامين الأولين أعني عمر بن عبدالعزيز

والشافعي ، ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقتع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته ، البسيط ، والوجيز والخلاصة في الفقه وإحياء علوم الدين ، وهو من أنفك الكتب وأجملها ، وله في أصول الفقه المستصفي ، والمنخول والمتحل في علم الجدل ، وتهافت الفلاسفة ، ومحك النظر ، وميعار العلم ، والمقاصد والمضنون به على غير أهله ، ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وحقيقة القوانين ، وكتاب ياقوت التأويل في تفسير التنزيل أربعين مجلداً ، وكتاب أسرار علوم الدين ، وكتاب منهاج العابدين ، والدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة ، وكتاب الأنيس في الوحدة ، وكتاب القرية إلى الله عز وجل ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرآن ، والأربعين في أصول الدين ، وكتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل وكتاب القسطاس المستقيم وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة وكتاب مبادي الغايات ، وكتاب كيمياء السعادة ، وكتاب تلييس إبليس ، وكتاب نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل في القياس والتعليل ، وكتاب المقاصد ، وكتاب إجماع العوام عن علم الكلام وكتاب الانتصار ، وكتاب الرسالة اللدنية ، وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إثبات النظر ، وكتاب المأخذ ، وكتاب القول الجميل في الرد على من غير الإنجيل ، وكتاب المستظهر في كتاب الأمالي وكتاب في علم أعداد الوقف وحدوده ، وكتاب مقصد الخلاف ، وجزء في الرد على المنكرين في بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها نافعة .

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأقلبي المحدث الصوفي صاحب كتاب النجم والكواكب .

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| أبا حامد أنت المخصص بالمجد | وأنت الذي علمتنا سنن الرشد |
| وضعت لنا الإحياء تحمي نفوسنا | وتقننا من طاعة النزاع المردي |
| فربح عبادات وعادته التي | يعاقبها كالدر نظم في العقد |
| وثالثها في المهلكات وإنه | لمنج من الهلك المبرح والبعد |
| ورابعها في المنجات وإنه | ليسرح بالأرواح في جنة الخلد |
| ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر | ومنها صلاح للقلوب من الحقد |

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله في كتابه المنقذ من الضلال ما صورته .

أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأحككي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق ، وما استأجرت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى بقاع الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما احتويته من طرق أهل التعليم ، القاصرين لدرك الحق على تعليم الإمام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق أهل

الفلسف ، وما ارتضيته أخيراً من طرق أهل التصوف ، وما تحل لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل أهل الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة . فابتدرت لإجابتك إلى طلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك . فقلت مستعينا بالله تعالى ومتوكلاً عليه ومستوفقاً منه ، وملتجئاً إليه .

اعلموا أحسن الله إرشادكم ، وألان إلى قبول الحق اتقيادكم . أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم : 32) .

ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى أن أتاف السن على الخمسين ، أقتحم لجة البحر العميق ، وأغمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأتكشف أسرار مذاهب كل طائفة لأميز بين كل محق ومطل ، ومستن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على فلسفته ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبداً إلا وأريد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرائته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديني من أول أمري وريعيان عمري ، غريزة من الله ، وفطرة وضعها الله في جبتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عني العقائد المروية على قرب عهد مني بالصبا إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشء إلا على النصر ، وصبيان اليهود لا يكون لهم نشء إلا على اليهود ، وصبيان الإسلام ، لا يكون لهم نشء إلا على الإسلام . وسمعت الحديث المروي عن النبي ﷺ : «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودِيَّةً وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجْسِنَانِهِ» فتحرك باطني إلى طلب الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين ، والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليديات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات .

فقلت في نفسي أولاً : إنما مطلوبي العلم بمحائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ما هي فظهر لي أن العلم اليقين هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط كالوهم ، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ، ينبغي أن يكون مقارناً للنقص ، مقارنة لو تمدى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإمكاناً ، فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد لو قال لي قائل ، الواحد أكثر من العشرة بدليل أني أقبل هذه العصا ثعباناً ، وقلبي وشاهدت ذلك منه ، لم أشك في معرفتي لكاتبه ، ولم يحصل معي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه وأما الشك فيما علمته ، فلا ، ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه من هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، وكل علم لا أمان معه ، ليس بعلم يقيني ، ثم فحشت عن علمي ، فوجدت نفسي عاطلاً ، عن علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات ، فقلت الآن بعد

حصول اليأس ، لا مطمع في اقتباس المستيقنات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ، فلا بد من إحكامها أولاً : لأنني أن يقيني بالمحسوسات ، وأمان من الغلط في الضروريات من جنس أمان الذي كان من قبل في التقليديات ، أو من جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، وهو أمان محقق ، لا تجوز فيه ولا غائلة له ، فأقبلت بجهد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات أنظر هل يمكنني أشكك نفسي فيها ، فانتهي بعد طول التشكيك بي إلى أنه لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ، وأخذ يتسع الشك فيها ، ثم إني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت ما أردت أن أصنفه ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودي ، ولم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم عزمي على الخروج عن بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً ، وأؤخر فيه أخرى ، ولا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة ، إلا حمل عليها جند الشهوة جملة ، فيغيرها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسبب ميلها إلى المقام ومنادي الإيمان ينادي الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخيل وإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطعها . فعند ذلك تتبعث الرغبة وينجزم الأمر على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض .

والشأن العظيم الخالي عن التكدير والتنجيس ، والأمر السالم الخالي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا تيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعي ، قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب من سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله على لساني ، حتى اعتقل عن التدريس فسكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطبيياً للقلوب المختلفة إلي ، فكان لا ينطق لساني بكلمة ، ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومرى الطعام والشراب ، وكان لا تنسأغ لي شربة ولا تهضم لي لقمة ، وتعدي ذلك إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل في القلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن أهم المهم ، ثم لما أحسست بمعجزتي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى الله التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجانبني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الإعراض عن المال والجاه ، والأهل والأولاد ، وأظهرت غرض الخروج إلى مكة ، وأنا أدير في نفسي سفر الشام حذراً من أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب على غرضي بالمقام بالشام ، فلطفت بلطائف الحيل بالخروج من بغداد ، على عزم أن لا أعاودها أبداً ، واستهزأ بي أئمة العراق كافة إذ لم يكن فيه من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، فظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجاحهم في التعلق بي والإنكار

عليّ ، وإعراضهم عنهم وعن الالتفات إلى قوهلم ، فيقولون : هذا أمر سماوي ، ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة العلم ، وفارقت بغداد ، وفارقت ما كان معي من مال ، ولم أدخر من ذلك إلا قدار الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصداً للمصالح ، لكونه وفقاً على المسلمين ، ولم أر في العالم ما يأخذ العالم ليعال أصلح منه .

ثم دخلت الشام وأقيمت فيه قريباً من سنتين ، لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي ، ثم تحرك بي داعية فريضة الحج ، والاستعداد من بركات مكة والمدينة وزيارة النبي ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، ثم سرت إلى الحجاز ، ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن وعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن أرجع إليه ، وآثرت العزلة ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب بالذكر ، وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعيشة ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة ، لكن مع ذلك لا أقطع طمعي عنها ، فيدفعني عنها العوائق ، وأعود إليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها ، والقدر الذي ينبغي أن نذكره ، لينتفع به ، أني علمت يقيناً ، أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرتهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة : ماذا يقول القائل في طريقة أول شروطها ، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحرم في الصلاة ، استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى ، وهو أقواها بالإضافة إلى ما تحت الاختيار . انتهى .

قال العراقي : فلما نفذت كلمته ، وبعد صيته ، وعلت منزلته ، وشدت إليه الرحال ، وأذعنت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا ، واشتاق إلى الأخرى ، فأطرحها ، وسعى في طلب الباقية وكذلك النفوس الذكية ، كما قال عمر بن عبدالعزيز : إن لي نفساً تواقفة لما نالت الدنيا تاقت إلى الآخرة ، قال بعض العلماء : رأيت الغزالي رضي الله عنه في البرية وعليه مرقعة ويده عكازه وركوة ، فقلت له يا إمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا ؟ فنظر إلي شزراً ، وقال : لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة وظهرت شمس الوصل :

تركتُ هوى ليلي وسعدى بمنزل وعدت إلى مصحوب أول منزل
وناديتي الأشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

انتهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه .